مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 607 - 623 — E ISSN: 2600-6634 ⁄ ISSN:2335-1586

مركزيةُ جهد الجاحظ في النظريةِ البلاغيةِ العربيةِ/قراءةٌ في أطروحةِ حمادي صمود من خلالِ كتابهِ التفكيرُ البلاغيُّ عند العربِ

The Centrality of Al-Jahiz's Effort in Arabic Rhetorical Theory/Reading Through Hammadi Samoud's Thesis in his Book The Rhetorical Thinking of the Arabs

كحلي رابح[1]*، دردار بشير[2]

kahli rabah[1], dardar bachir[2]

المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت، الجزائر

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية

University Center Ahmed Ben Yahia Al-wancharisi Tissemsilt Algeria

rabahkahli38@gmail.com[1] / bacderdar@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2020/11/08	تاريخ القبول:30/05/2021	تاريخ النشر : 04/11/2021

مُلخّص البحث

يروم هذا البحث إبراز مركزية الجاحظ في النظريةِ البلاغيةِ العربيةِ من خلال أطروحة حمادي صمود «التفكيرُ البلاغيُّ عند العربِ»، فقد قدّم قراءة جديدة للبلاغة العربية بسبقه في تقسيم البلاغة العربية إلى البلاغة قبل الجاحظ، والحدث الجاحظي، وبعد الجاحظ، وحاول الاستثمار في هذه القسمة، وكان عمله في الكتاب مرتكزا على الجانب التاريخي التطوري، مستثمرا في المكتسبات البنيوية واللسانيات المعاصرة، وها هنا إذ ننوه مباشرة حمادي صمود التفكير البلاغي العربي من منطلق التفاعل بين التراث وبين الحداثة، فكان مشروعه تركيبيا يعتمد النظرة الشمولية في قراءته للتراث، كما تجلت المقولات اللسانية عند الجاحظ في للغة والكلام ومراعاة المقام كالسامع وظروف المقال، فقد نجح بالاستعانة بالمناهج الغربية في قراءة التراث.

الكلمات المفتاح: بلاغة، صمود، لسانيات، تراث، كلام، منهج

Abstract :

This research focuses on the centrality of Al-Jahiz in Arab rhetoric theory through Hammadi Samoud's thesis, entitled " Rhetorical Thinking Among The Arabs ". He presented a new reading of Arabic rhetoric by splitting rhetoric into rhetoric before Al-Jahiz, Al-Jahiz period, and after Al-Jahiz. He attempted to invest in his split. His work in the book was based on the historical evolutionary side, investing the structural acquisitions and contemporary linguistics. We note that Hammadi

* كحلي رابح. rabahkahli38@gmail.com

Samoud set up his reading of Arab rhetorical thinking based on the interaction between heritage and modernity. His project was synthetic depending on a holistic view in his reading of heritage, as the linguistic sayings manifested with Al-Jahiz such as language and speech taking into account the status of the listener and the circumstances of saying. He succeeded by using western curricula in reading heritage.
Keywords: Al-Jahiz، Hammadi Samoud's، linguistics، language، rhetoric

1. مقدمة:

إذا كان التراث البلاغي هو إحدى أوجه الحضارة العربية الإسلامية، فإن تكرار القراءة والبحث هي عملية لا تتوقف حتى نحصل على إجابات، وفي نفس السياق يحاول الباحثون نفض الغبار عن هذا التراث المتمثل في البلاغة العربية، فقد كانت البلاغة تشكل تحديا أمام الدارسين الذي يسعون فكّ شفراته وأسراره وقضاياه، وكان لابد لهذه البلاغة أن ينفخ فيها لتحيا من جديد، وفق معطيات علمية جديدة، تساعد على كشف مضمرات هذا التراث العربي القديم.

بعد قراءتنا لبحوث عدّة حول حمادي صمود، وبين المنهج الذي سلكه في التحليل، أنتجت لنا بعضا من الأسئلة التي أنتجتها قراءتنا لهذا الكتاب وهي على النحو التالي: هل نجح حمادي صمود في الثبات على المنهج الذي استعان به في كتابه هذا؟ وهل نجح في التوفيق بين التأريخ للبلاغة بآليات النظرية اللسانية؟.

ننطلق من فرضية عززتها مركزية الجاحظ في البلاغة العربية، فبين مركزية يمنحها صمود للجاحظ وتنظيراته البلاغية المؤسسة، كل هذا وفق منهج تاريخي وبآليات النظرية اللسانية، كما نطمح من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن مكونات بلاغة الجاحظ من مفاهيم لسانية، وهل نجح حمادي صمود في استغلال النظرية الغربية في مشروعه هذا، وهل نستطيع الخروج بإجابات محتملة.

2. تمهيد:

وها هنا إذ ننوه بأن الجاحظ هو واضع اللبنة الأولى للبلاغة العربية باتفاق الدارسين، فهو صاحب السبق في التأسيس لبلاغة عربية خالصة، «ولعلنا لا نغلو إذا قلنا بعد ذلك كله بأن الجاحظ يُعدّ – غير منازع– مؤسس البلاغة العربية، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه **البيان والتبيين**، ونثر فيه كثيرا من

ملاحظاته وملاحظات معاصريه»[2]، ولم يتحقق له هذا إلاّ بالدراسات والبحوث البلاغية والنقدية العربية التي صاحبت المدوّنة الجاحظية، ولعل هذا ما أكسبه مكانة سامقة في تاريخ البلاغة العربية.

فهو علمٌ من أعلام عصره وكان أيقونة معرفية متميزة في تاريخ الأدب العربي، وأصبحت مصنفاته تحوي بلاغة متجذرة «هذه البلاغة التي حيّرت عقولهم وخرقت معاييرهم الجمالية والأخلاقية»[3]، وقد سمّى إبن دريد كتب الجاحظ بمنتزهات القلوب[4]، لما فيها لآلئ وجواهر أدبية وبلاغية أدت إلى تطوير البيان العربي، «قد يكون الجاحظ أشهر الكتّاب الأدباء في الثقافة العربية الإسلامية بسبب تنوع مواضيعه وغزارة تآليفه وعنايته الموسوعية بكل فنون المعرفة في زمانه»[5] ، وهذا الذي جعله يتربع على عرش البيان ولم يزحزحه فيه أحد.

نستطيع القول أن قراءة النص البلاغي القديم بمنظار لساني جاءت بعد التطور الذي صاحب الدرس البلاغي عند الغرب، إثر محاولات من الباحثين من أبرزهم: فاليري وريتشاردز وأوغدن، هذا النوع من القراءة فتح المجال أمام الباحثين العرب للنظر من جديد في التراث البلاغي وفق مقولات علم اللغة الحديث بغية البحث عن عملية البلاغة لتكون مشاركة في صناعة أدبية الأدب.

ثم ظهرت بعد ذلك بعض المحاولات التي حاول أصحابها الوصول إلى تقديم قراءة جديدة للبلاغة العربية على غرار محاولات حمادي صمود ومحمد العمري ومحمد عبد المطلب، الذين اعتنوا ببلاغة الجاحظ، وانبروا لها ببحوث ودارسات، من أبرزهم شوقي ضيف، ومحمد العمري، ومحمد مشبال، وادريس بلمليح، ومحمد الصغير بناني، وأحمد الشايب ونبيل الخولي، وحمادي صمود.

لقد حاول حمادي صمود تبني البحث في هذه البلاغة قديمها وحديثها، وحاول في مشروعه إبراز أحقية الجاحظ ومركزيته في البلاغة العربية، كما «يمكن اعتبار أطروحة حمادي صمود حول **التفكير البلاغي عند العرب**، التي صدرت طبعتها الأولى عن الجامعة التونسية بداية الثمانينات، من الاجتهادات التي شكلت قفزة نوعية في إعادة قراءة البلاغة العربية القديمة وفق منظورات جديدة»[6]، فقد استعان بالبنيوية والأسلوبية واللسانيات للاشتغال على التراث البلاغي الجاحظي.

يقول الباحث عن مشروعه هذا: «يمتد عملنا على ستة قرون وهو إطار يحيط ببداية التفكير البلاغي وبأقصى ما وصل إليه من نضج واكتمال، كما نوعنا المصادر التي استقينا منها مادتنا فلم نقتصر على المؤلفات التي اشتهرت بمنزعها البلاغي الصرف وحاولنا الاستفادة من كتب التراث الأخرى التي

تناولت ظاهرة اللغة من زوايا مختلفة»[7]، في ظل المكتسبات اللغوية الجديدة التي ساعدته كثيرا في تقصي بلاغة أبي عثمان الجاحظ.

نستطيع القول أن تاريخ البلاغة العربية لم يكن- في مجمله- تاريخ نظرية موحدة أو فكر منسجم، بل اختلفت النظريات والأفكار، وارتبطت بطبيعة المقاربات والمناهج والخلفيات المعرفية أحيانا، وارتبطت أحيانا أخرى بالنصوص والخطابات التي هي من موضوع النظر البلاغي، واشتد الصراع في غمرة المناهج والنظريات النقدية واللغوية والمقاربات النصية الجديدة، حول أسئلة كبرى، تثيرها البلاغة من حيث موضوعها وغاياتها، وآليات اشتغالها، وها هنا سنحاول تسليط الأضواء على كتاب **التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)** لحمادي صمود للخروج بإجابات محتملة، أو ربما بأسئلة جديدة.

3- في كتاب التفكير البلاغي عند العرب:

صدر هذا الكتاب في طبعته الثانية سنة 1994، عن منشورات كلية الآداب منوبة، بتونس، في 669 صفحة، وهو كتاب مهم في مضامينه وطروحاته يتناول بأسلوب مكثف الاشكالات الرئيسة التي تطرحها العلاقة الجدلية والملتبسة بين البلاغة والأدب والنظريات المستحدثة، وبين الجاحظ وبلاغته ومركزيته في هذه البلاغة الرحبة، فقد حاول مد الجسور إلى التراث، واستخراج ما فيه عن طريق البنيوية وعلوم اللغة.

إن حمادي صمود يعتبر من «الباحثين العرب المعاصرين القلائل الذين تبنوا البلاغة بمفهومها الواسع -الشرقية والغربية، القديمة والمعاصرة- خيارا بحثيا في فترة السبعينات»[(8)]، وتعد أطروحته -هذه- قراءة في المدوّنة البلاغية العربية حتى القرن السادس الهجري من أفضل المؤلفات في هذا العقد في التأريخ لنشأة البلاغة العربية، وقد قسّمها إلى ثلاث روافد كبرى هي: البلاغة قبل الجاحظ، والحدث الجاحظي، وبعد الجاحظ.

وحاول الاستثمار في هذه -القسمة- ليجعل من دور الجاحظ مركزيا في هذه البلاغة، ولا نعرف بالضبط الدوافع التي جعلته يُقدم على هذا الصنيع، وهل اعتماده على هذه القسمة وربطها بالبلاغة العربية سيساعده في حل إشكالية التفكير البلاغي عند العرب.

وها هو الناقد الكبير حماد الجبالي* يشيد بمؤلفي المغرب العربي بتميزهم عن غيرهم في أسلوب الكتابة يقول: لقد اعتدنا أن نجد لأسلوب الكتابة في المغرب طابعا يميزه بعض الشيء عن الأسلوب

المألوف في الشرق إما في تركيب بعض الجمل، أو استخدام بعض المفردات دون غيرها، أما في هذا الكتاب فإن الأسلوب يتجاوز الخصائص المحلية إلى أبعد حد، حتى لينسى القارئ أن كاتبه من قطر آخر، وحتى ليقول متى عرف ما نسبه، إن بضاعتنا ردت إلينا(9).

إن الناظر في كتابه **التفكير البلاغي عند العرب** يرى أن «الأستاذ حمادي صمود خصّص قسما كبيرا **للتأسيس**(ص 137-307)، وقد قدّم متنا مهما للبلاغة الجاحظية وضبط الكثير من المفاهيم وقيّد الكثير من الأحكام بشأن هذه البلاغة»(10)، وهي شهادة مهمة من محمد العمري الذي كانت بحوثه تتقاطع مع بحوث صمود، وفي مؤلفاته أبان عن نوايا مضمرة حول- محاولته- التقليل من مركزية الجهد الجاحظي وتحويلها إلى ابن وهب، وهذا موثقٌ في كتابه **البلاغة العربية أصولها وامتداداها**، وفي **مجلة فصول** نجد رجاء عيد قد أعاب على صمود غلوه في الجاحظ.

كان عمل صمود في الكتاب مرتكزا على الجانب التاريخي التطوري، فقد كان اهتمامه كبيرا بالجاحظ «الذي ظلم أيما ظلم عندما اتهم بأنه لم يفرق بين معاني كل من 'البيان' و'الفصاحة' و'البلاغة' وأنه خلط بين مدلولات هذه الألفاظ»(11)، وفي القسم الأول من الكتاب ارتكز عمله على بلاغة ما قبل الجاحظ، وهو إعادة لما هو متداول ومكرور – من قبل- من طرف القدماء والمحدثين، وقد ناقش فيه صمود قضية عوامل النشأة، بحيث بدأها بالشعر وبيّن أهميته عند العرب، وأورد قصصا مطعون في صحتها، كرواية تحكيم النابغة بين الخنساء والأعشى، أو رواية تحكيم أم جندب بين علقمة وزوجها أمرئ القيس، كما كانت له نقولات حول الشعر الأول، وكيف ساهم في نشأة البلاغة العربية.

وفي إطار عوامل النشأة تطرق صمود إلى قضية تقعيد اللغة وسيطرة اللغويين ردحا من الزمن وحملهم لواء النقد والتصويب، كما تعرّض لقضية التعليم والتعلم، وقضية المؤثرات الأجنبية، كما تحدث عن المجاز القرآني، وأغلب هذه المباحث هي مباحث مجترة، لم يكن له فيها سبق، أما باقي المباحث قد كان بارعا في تصورها، وأبان عن قوةٍ علمية في التأليف.

لقد رام حمادي صمود مباشرة التفكير البلاغي العربي من منطلق التفاعل بين التراث والحداثة، ففي هذا التوجه استعان المؤلف بالمفاهيم اللسانية والنقدية الحديثة، وبفعل المزاوجة الذكية بين النظريتين التاريخية التطورية والآنية التأليفية، فربط المناقشات الخارجية بالقضايا الداخلية بتصور الجاحظ العام، وهو عمل خالف فيه صاحبه نمط الدراسات القائمة على السرد التاريخي وتلخيص مضامين الكتب، وبهذا تمثل قراءة صمود فتحا جديدا في التعامل البنيوي اللساني مع التراث.

نحس مع صمود في هذا المشروع أنه ذو مستوى راق في محاورته للجاحظ ولبلاغته، حتى أنه لم يقتصر على الأحكام العامة والانطباعات الذوقية، فالكلام والصمت من المباحث التي أسهم فيها أبو عثمان بشكل كبير، وهو بالأهمية بما كان «ولا تقتصر أهمية ما تفطن إليه الجاحظ على ما فيه من مظاهر الحداثة والمعاصرة، فقد اهتدى في وقت مبكر إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات»[(12)]، بحيث كان ذا استباقات تجلت في الدراسات الحديثة.

4- المنهج والآليات:

إنّ الاستفادة الحقيقية من المناهج الغربية لا تكون بالنقل والتكرار فحسب، بل بإعادة إنتاجها في سوق النقد الأدبي العربي، عبر رؤية تاريخية تقوم على دراسة متأنية ومعمقة للمادة النقدية البلاغية العربية في شرطها التاريخي والحضاري[(13)]، وهذا ما حاول استغلاله حمادي صمود في مؤلفه هذا، فكان بحق بشرى للدارسين من بعده عبر المادة التي زجّ بها فيه.

والمنهج الذي استعان به الكاتب سيجعل القارئ يدرك بحق صعوبة إدراكه «لأن طبيعة المنهج وخصائصه ستظل عصية الفهم على القارئ العربي الذي سيخفق، لذلك، في إدراك القيمة الثورية للبنيوية، أما تقديم المنهج من خلال تجليه في تحليل نصوص مألوفة لدى القارئ العربي فإنه، فيما يرجى، سيتيح له الفرصة لإدراك الهوة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة في الدراسات العربية»[14]

ومن جانب آخر يعتبر المنهج الذي وظّفه حمادي صمود لقراءة البلاغة والنقد العربيين، من أهم الأشياء الجديدة التي أتى بها في كتابه **التفكير البلاغي عند العرب**، وباقي الأبحاث السابقة التي قامت بدورها في قراءة التراث العربي بلاغة ونقدا، نخص بالذكر قراءة شوقي ضيف في كتابه **البلاغة العربية تطور وتاريخ**، وقراءتي عباس أرحيلة في كتابه **الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين حتى القرن الثامن الهجري**، وقراءة محمد الوالي في كتابه **الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية**.

أصبح معروفا تميز حمادي صمود عن معاصريه في قراءته الجديدة للبلاغة العربية، فقد استعان بمناهج غربية محضة، استثمر في المكتسبات البنيوية واللسانيات، فكان مشروعه تركيبيا يعتمد النظرة الشمولية في قراءته للتراث، هذا دون إغفال المنهج التاريخي الذي رصد به الظواهر البلاغية والنقدية والتفكير عند العرب، كالبيان والبديع والمجاز وغيرها من المباحث البلاغية.

يقول حمادي صمود: «إن المنهج في تصورنا لا يقتصر على طرائق العلماء في تأليف كتبهم وتنظيم فصول أبوابها، كما لا يتحدد بالصبغة الغالبة على دراستهم أدبية كانت أو كلامية وإنما يتجاوزها إلى

تدقيق مسالكهم في الاهتداء إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام واستكناه المستندات النظرية والمتطلبات المبدئية التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنية وأخرجوا كتبهم»[15].

ولأهمية المنهج في توجيه القارئ واستمالته يقول أيضا: «والمؤلف على بيّنة من غزارة المادة التي يعالجها وتشعبها، حاد الوعي بضرورة ترسم منهج محكم يمكن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ في أبواب واضحة الفواصل متينة الروابط، إلاّ أن الإنجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الصراع الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدوين والتنظيم»[16]، وهذا منهجه في التأليف الذي أصبح مشروعا بحق ينتفع به المتلقي والباحث في أفنان البلاغة.

وتبعا لهذا التصور حاول الباحث رجاء عيد بمنطق نقد النقد أن يتابع رحلة صمود والتي كانت في تقديره شاقة مشوقة، ومن ثم فقد وقف ابتداء على منهج صمود في كتابه قائلا: «أنه لم يلتزم بمنهجه في القسم المخصص لدراسة الجاحظ وتعليل المؤلف لذلك الخروج في كلتا المرتين يبدو غير مقنع»[17]، ففي الخروج الأول يكون تعليله بأن الجاحظ وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي، وقد جره ذلك لبعض الاضطرابات المنهجية.

وفي ما يخص المقاربة المنهجية للكتاب يقدم لنا حافظ الجمالي* قراءة في مشروع صمود «وبمنطق النقد الواصف Critique descriptive يبين أن منهج صمود في مقاربته للبلاغة العربية طريف متميز»، وهذا اعتراف منه بأن منهج حمادي صمود في الكتاب هو منهج دقيق توصل به إلى ما يريد الوصول إليه.

5- الفعل اللغوي واللساني عند الجاحظ:

وفي هذا المقام نجد حمادي صمود يشير إلى أن الجاحظ قد انتبه إلى الفعل اللغوي «مهما كان الحيز الذي يتنزل فيه، ويقطع النظر عن مقاصد منجزه وغاياته، يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي وهي المتكلم والسامع والكلام»[18]، فهذه العناصر التي ذكرها تمثل الركيزة الأساسية للعملية البيانية، وهي نفسها حيث يقوم بناء عليها بالتحليل وعليها تقوم المقاييس البلاغية لديه.

وها هنا إذ ننوه على أن ظاهرة التواصل (theorie de la communication) ظهرت في حقبة متقدمة من هذا القرن، وهي نظرية تهتم بكل أشكال الخطاب مهما كانت (السنّة) code المستعملة و(القناة) canal المختارة، ويقوم (مخططها) shema القاعدي على العناصر الثلاثة التي

ذكرناها مع العلم أن الخطاب أو الكلام ينقسم بصفة آلية إلى قسمين: الكلام ذاته وموضوعه، فيصبح التقسيم الثلاثي رباعيا(19).

والناظر في مؤلفات اللغة والأدب يجد أنهم استفادوا كثيرا من هذه النظرية واستغلوها أحسن استغلال وجعلتهم يتقدموا خطوات نحو الأمام «وكان لرومان ياكبسن r. Jakobson فضل السبق في توظيفها للتقدم بالأبحاث الشعرية والأسلوبية والخروج بها من المأزق الذي تردت فيه لتحديد أدبية الأدب litterarite، فقد كانت جل الأبحاث قبله تعتمد لتحديد تلك الأدبية، على خصائص الخطاب ذاته ومقابلته بالخطاب العادي الذي تتجرد فيه اللغة من كل بعد فني، في الدرجة الصفر»(20)، وعليه يمكننا التساؤل هل نجح ياكبسون في توظيف هذه النظرية كأداة لتخطي الصعوبات الإجرائية.

وهنا تأتي هذه النظرية «نظرية التواصل لتطرح المشكل طرحا جديدا يأخذ بعين الاعتبار الشبكة المعقدة التي تؤسس عملية التخاطب، وتؤكد على أن ظروف المقال غير اللغوية كالمتكلم والسامع تقوم بدور هام في تحديد خصائص الخطاب، كما استطاعت أن تخرج البحث عن الأدبية من ثنائية الكلام الأدبي والكلام العادي إلى درس وظيفي متكامل»(21)، يسعى إلى الانتقال من الأدب العادي الى أدب راقي ومتكامل وإبلاغي وشعري وجمالي.

وهذه النظريات تنقسم إلى أربع أقسام كما يقول الامريكي (m. h. abrams)، كل منها طرفا من أطراف 'مخطط التواصل' وهي: النظريات التعبيرية (expressive) وتتعلق بصاحب الأثر وصانعه و'النفعية' (pragmatique) وتتعلق بمتقبل الأثر و'الشكلية' (formelle) وغايتها شكل الأثر نفسه، و'المحاكية' (mimétique) وتتعلق بموضوع الأثر(22).

ان الاستدعاء الذهني للغة ركن هام في هذه المسألة، خاصة وأنها متوزعة بين عاقل وغير عاقل (إنسان، حيوان) فليست لهذا الاستدعاء فائدة بالنسبة للغوي بما أنه لا يختلف جوهريا عن التواصل الاجتماعي، غير أن الذي له أهميته عند المفكرين هو العلاقة بين الفكر اللاشعوري والتواصل سواء كان لغويا أو غير لغوي»23

وإذ ننوه هنا إلى موضوع في غاية الأهمية يتمثل في اهتمام الجاحظ وتفطنه إلى مظاهر الحداثة والمعاصرة «فقد اهتدى الى وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات، وهو أول مفكر نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدّر أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض، جملة

من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال»[24]، وقد تداخلت المعطيات البلاغية مع اللسانية في مؤلفات الجاحظ.

وبهذا يكون عمل حمادي صمود في كتابه فيه «كشف بعض البحوث اللغوية عند الجاحظ ودرسها على ضوء علم اللسانيات البشري الحديث لمعرفة بعض الحقائق حول التأثيرات العربية اللغوية في بناء ما يسمى اللسانيات»[25]، فباللسانيات استطاع الكاتب مقارعة التراث العربي الممتد والموغر في القدم أن ينحت منه ما يريد.

ثم ينتقل حمادي صمود إلى نقد عناصر الخطاب وعدم اتزانها في مؤلفات أبي عثمان حيث اعتبرها شحيحة، يقول الجاحظ: « والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلاّ أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم، هكذا ظاهر هذه القضية وجمهور هذه الحكومة»[26]، فهي ضئيلة خاصة فيما تعلق بالسامع أو المتقبل، مقارنة بالباث أو المتكلم، ثم تطرق لقضية أخرى لا تقل أهمية عن هذه وهي وظائف الكلام.

وظائف الكلام:

تطرق حمادي صمود في هذا المبحث إلى حدود استعمال الظاهرة اللغوية، والمتتبع لهذه الظاهرة في مؤلفات الجاحظ يستخلص ثلاث وظائف رئيسية تسخر لأدائها الظاهرة اللغوية:

1. وظيفة خطابية بالمفهوم اليوناني كما يتجلى في خطابة أرسطو وما كتبه الفلاسفة المسلمون. باعتبار أن الخطيب كنموذج للمتكلم، باصطلاحات متقاربة كالإقناع، والاحتجاج، والمنازعة، والمناظرة.
2. جملة من الوظائف يصعب إدراجها تحت تسمية واحدة وغايتها إما خلق حال معينة في المستمع كالإضحاك واللذة والإمتاع أو منزع تعليمي.
3. وظيفة الفهم والإفهام أو البيان والتبيين، فقد ربط الجاحظ البيان بهذه الوظيفة.[27]

ومن الأسئلة التي صاغها حمادي صمود هنا: لماذا طغت هذه الوظيفة الأخيرة على تفكير الجاحظ البياني؟ ولماذا تركيز الجاحظ يظهر على فعل المتكلم والمتقبل؟ والأسباب كثيرة والأجوبة اختصرها في سببين رئيسيين أولهما تاريخي ارتبط بمكانة النص ووظيفته في المجتمع الاسلامي الثقافية كالقرآن والشعر مثلا، «وهذا يعني أن المعرفة بالشعر الجاهلي شرط أساسي لمعرفة الاعجاز القرآني فبقدر نصيب العربي من لغته،

E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

سليقة وذوقا، يفهم إعجاز القرآن»[28] والثاني ظرفي يتمثل في الحقبة التاريخية التي عاش فيها الجاحظ، من انتماءه ونظرته الى الأشياء، الوضع اللغوي السائد آنذاك.

5- 1- المتكلم:

مقام المتكلم هو جملة من الظروف الحافة بتولد النص، لأن مقام الخطابة يختلف عن مقام الشعر مثلا، ولتحقيق الوظيفة الكلامية -الفهم والافهام- تقتضي من المتكلم احترام جملة من النواميس اللغوية، فقد ربط الجاحظ بين المعطيات اللغوية الصرفة بآراءه البلاغية، وهو بهذا الصنيع يثري مخطط التواصل، بل يكاد يصل به إلى الاكتمال (المتكلم، السامع، الخطاب، بنية وموضوعا) وما يقوم بينها من روابط(29)، وهي قفزة فكرية هامة.

5-2- الكلام:

إن أردنا تقريب هذا النهج في الدراسة من المشاغل البلاغية والأسلوبية الحديثة قلنا إن عنايته ببلاغة الكلام وتحيط به اجراءات متعلقة بالوحدات اللغوية المفردة كاختيار اللفظ الملائم للمعنى المراد والمستجيب للغاية المرسومة من الكلام أو استغلال العلاقات الاستبدالية القائمة بينهما(30).

يعتبر الكلام وخصائصه من أكبر جوانب التأليف عند أبي عثمان فقد اهتم به أيما اهتمام وبسببه انطلق لضبط نواميس البيان وغايته، ومن الطبيعي أن يحظى بهذه المكانة لأن البلاغة، أيّ بلاغة، لا تعدو أن تكون 'كلاما على الكلام' عنه تصدر وإليه ترجع، وهو الذي يشرع وجودها ويحتويها تصورا كانت أو ممارسة(31)

إنّ الباحث بطرحه -القراءة اللسانية- هو يريد إعادة النظر في الموروث البلاغي، وانطلاقا من الفحص البنيوي للنص نجد حمادي صمود فنجده ناقش مسألة البيان عند أبي عثمان بوصفها النسق الناظم، وحاول إقحام مقولات الجاحظ في - نظريات - ضمن حقل العلوم الأدبية، واستطاع أن يُظهر النسق الذي كان مضمرا في مؤلفات الجاحظ.

وفي كتابه التفكير البلاغي عند العرب نجده اختار الحدث الجاحظي في البلاغة العربية كمرجع له في تدوين هذا العلم في إطار قراءة لسانية، «وصورة هذه القراءة أنها ناقشت أفكار البلاغيين في جملة من المقولات اللسانية التي جاء بها العلم الحديث، ويبدو أن الرجل كسب هذه الثقافة اللسانية جيدا، وحاول أن يقدم قراءة جديدة لتاريخ البلاغة العربية من منطلق التفاعل مع النصوص اللغوية»(32).

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 607 - 623 ISSN:2335-1586 / E ISSN: 2600-6634

نقف على نظرية متكاملة عند حمادي صمود تقدّر «أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعي فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية extra linguistique من روابط»(33)، وهو سبقٌ للمؤلف شحن البلاغة العربية بنظريات غربية ساعدته في اكتشاف مضمرات التراث العربي القديم.

ومع استجابة المؤلف لما تتطلبه المفاهيم اللسانية المعاصرة فقد «تنبه صمود إلى استباق مهم عند الجاحظ، يتمثل في إدراكه لأفضلية اللغة الطبيعية وهيمنتها كنظام سيميائي على الأنظمة السيميائية الأخرى، وهو ما يقول به السيميائيون المعاصرون»(34)، وفي البيان والتبيين نجده الكثير من هذه المفاهيم التي استطاع الجاحظ أن يوظفها في كتابه.

يحاول صمود كشف أسرار المادة البلاغية عند الجاحظ، وذكر سبب إشراكه للمادة اللغوية بالمادة البلاغية، و«يبدو من وجهة ألسنية عامة، أن البحث البلاغي والنظر في الأساليب نظرا يرغب عن الانطباع ومجرد الانفعال ويروم كشف السر في جودتها وفضل بعضها على بعض لا يتأتى إلا بعد معرفة دقيقة بقواعد اللغة والضوابط التي تتحكم في ما قد يقوم بين أقسامها من علاقات»(35)، كما أن توظيف الطاقات الصوتية التي تنتج عن الوظيفة الأدبية والفنية كالسجع مثلا.

والجاحظ لم يقتصر على اللغة وحدها ولم يقتصر عليها فقط، بل عدّ العقد والإشارة، والخط، والنصبة، من وسائل التواصل، و«بدأ الجاحظ من البيان كنظرية معرفية عامة وانتهى إلى خطابية قائمة على المقام والإشارة»(36)، حتى وإن اعترف تصريحا بأن اللغة أهم تلك الوسائل وأوفاها، وفي خضم هذه المباحث لا ينبغي أن نحمّل المؤلف ما لا يحتمل، فالمعاني وإن كان للباحثين فيها مقالات بين من يرى بأهميتها، وبين من يرى قلة وزنها مقارنة بالألفاظ بصفة عامة، وهذه هنة لا يُعرف بها الجاحظ، فالألفاظ والمعاني كلها درر من درر الجاحظ كما بيّنه صمود.

إن القراءة التي تتعامل مع التراث اللغوي العربي القديم «كموجود لغوي قائم الذات، باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته، فقراءة صمود عرضت آراء لغوية جاحظية في محاولة منه لاستنطاق نصوصه، والوقوف على ما فيها من نظرات لسانية «لم تمتد إليها البشرية إلاّ مؤخرا بفضل ازدهار علم اللسان منذ القرن العشرين»(37)، فمقولات الجاحظ تحاكي حد التطابق مقولات الدرس اللساني الحديث، الذي يراعي البعد الاجتماعي للغة.

فقد تحدث الجاحظ عن مفاهيم لها صلة بلسانيات النص، وإلى علم أمراض الكلام، وعيوب النطق، فقد تحدث عن اللثغة فذكر أربعة أحرف تدخلها اللثغة وهي: القاف والسين واللام والراء، وهي لثغ تتأدى باللسان ويصورها الخط، ولم يفت أبي عثمان الجاحظ تصنيف اللثغ السابقة حسب مدارج الرفعة والحقارة، واليسر والعسر، كما تحدث عن التعتعة واللفلفة «إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف، وقيل بلسانه لفف»[38]، كما تحدث عن عيوب كثيرة تصيب المتكلم تعتبر عيبا في البيان والتبيين.

وتحدث الجاحظ كذلك عن عيوب النطق التالية: العقلة واللكنة والحكلة مستأنسا بشواهد شعرية شتى، وأضاف عيوبا أخرى كالنحنحة والسعلة والبكيء والهياب والعي وعيّاب والضجم والفقم والروق، وكل هذه العيوب البيانية تلتصق بشروط الخطبة، كما تحدث عن العيوب التي تصيب آلة النطق، كأهمية الثنايا وفساد الأسنان.

وقف الباحث حمادي صمود على نص الجاحظ التالي: «وعلى قدر وضوح الدلالة والصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور وكان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم»[39]، فالإفصاح وجلاء الألفاظ هو من مباحث الجاحظ البلاغية التي اشتغلت عليها النظريات الغربية اليوم.

وقد حفلت الساحة بمؤلفات وأطروحات نهجت نهج حمادي صمود في إبراز الجاحظ – اللغوي– هي كالآتي:

- التفكير اللساني في الحضارة العربية الإسلامية لعبد السلام المسدي.
- تأملات في نظرية الدلالة في الفكر اللغوي العربي لأحمد المتوكل.
- أصول تراثية في علم اللغة لزكي حسام الدين.
- بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب لعبد الجليل مرتاض.

والناظر في هذه المؤلفات وفي مضامينها يدرك جليا تقارب وجهات النظر بينه وبينها، بين نظرة لسانية خالصة، وبين تراثية تتزين بتراث العرب.

6- مركزية الجاحظ البلاغية:

إن الناظر بغير عصبية يدرك لا محالة أن لب البلاغة ومركزها هو الجاحظ، وها هنا يبرر صمود اختياره لهذا الأخير بقوله: «ولم نخرج عن هذا الالتزام إلاّ في القسم المخصص للجاحظ لأنه، في اعتقادنا وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تبقى الفترات الموالية تستلهم مادته وتستحضر مقاييسه»(40)، فكل جهد بلاغي جاء بعد أبي عثمان يعتبر عالةٌ عليه، **فالبيان والتبيين** هو مؤلف يعتبر من أصول الأدب وفنه، كما يقول إبن خلدون في المقدمة.

كما أن مؤلفاته بفهم صمود تعد أقدم آثار وصلتنا لها علاقة بأفانين التعبير، وهو كذلك أول تأليف يخصص لدراسة الكلام البليغ وضوابط المستوى الفني من اللغة، والمفهوم من هذا أن الباحث قد أدرك تقسيم المنظومة البلاغية العربية إلى عصور، أو إلى بيئات لغوية وكلامية، وفلسفية، وأدبية، ويكون صمود بهذا التقسيم قد فطن إلى أن الحدود الفاصلة بين هذه البيئات والعصور النقدية لم تكن حدودا قاطعة، فهناك دائما نقاط التداخل والتلاقي.

تركزت دراسة حمادي صمود لمركزية الجاحظ في نقاط نجملها فيما يلي:(41)

أ- رأى المؤلف أن الجاحظ يمثل الحلقة الأولى لحركة ما سمي بالنزعة الموسوعية في الفكر العربي، ويرى أنها عند الجاحظ مؤشر خلق حضاري، بينما كانت عنده غيره نذير تقهقر وانحطاط.

ب- يعرض المؤلف **لمجموعة الرسائل** وكتاب **البخلاء**، ومع اعترافه بأن المادة البلاغية قليلة فيهما وصعبة المنال، فهي متناثرة هنا وهناك حيث لم يفردها بمؤلف خاص.

ج- يعرض لمصطلح البيان ويتوصل إلى أنه يتحمل دلالات متعددة حسب السياقات، حيث يتسع في إحداها.

د- تناول قضية المجاز، وقضية الخطابة، وكذلك الصفات الصوتية التي تستحب في الخطيب، وآفات النطق.

7. مناقشة حمادي صمود:

لا يختلف اثنان حول جهود حمادي صمود التأليفية، وخاصة في مؤلفه **التفكير البلاغي عند العرب**، فقد أبان عن استنباطات كثيرة وتحليلات نفيسة، وكل جهد نفيس يكون مُعرضا لسهام النقد بطبيعة الحال، وإن الحديث عن مركزية الجاحظ البلاغية عند صمود،- وتقسيماته الثلاثية قبل الجاحظ، والحدث الجاحظي، وبعد الجاحظ- تؤدي بنا إلى متابعة مؤلفه بشيء من التمحيص والتقصي.

E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

وها هنا نحاول في عجالة أن نستعرض أهم انتقادات قد تم توجيهها لحمادي صمود في كتابه التفكير البلاغي عند العرب، وفي الوقت نفسه نتساءل هل ثبت على منهج الدراسة الذي انطلق منه، «ومن الملاحظ أنه لم يلتزم بمنهجه في القسم المخصص لدراسة الجاحظ وخرج عن تقسيمه – مرة أخرى– عند تحديد البداية الحاسمة لفترة ما **بعد الجاحظ**، وتعليل المؤلف لذلك الخروج في كلتا المرتين يبدو غير مقنع»(42)، وهذا رأي يحتاج لدليل ولا نستطيع التسليم بهذا الرأي بدون أدلة مقنعة.

يناقش صمود أنواع الدلالات على المعاني، وإن كان ينساق في استطرادات فيناقش – مع الجاحظ – المفاضلة بين الصمت والكلام، ويحاول ربط المفاضلة ربطا متكلفا – بأسباب باطنية حين يراها تعكس موقفا من فكرة الإمامة، علمية كانت أو سياسية وذلك في قوله: «أليس من حقنا أن نرى في دفاعه عن الجاحظ عن الفصاحة موقفا سياسيا يدعو الى تركيز السلطة سلطة الكلمة في يد الجنس العربي؟ »(43)

يعرض الباحث حمادي صمود لمجموعة الرسائل، وكتاب البخلاء ومع اعترافه بأن المادة البلاغية قليلة وصعبة المنال، فإنه يصدح قائلا: «إلاّ أنها على تواضع حجمها مفيدة»(44)، ولا يتضح من صور هذه الافادة حسب رجاء عيد سوى لقطات سريعة، لا يطيل فيها الشرح بالرغم من قلتها كما قال، لكن المتلقي بحاجة ملحة لمزيد من الكشف عن هذه البلاغة الموزعة في مؤلفات الجاحظ.

إجمالا وبشيء من التأمل يدرك الباحث وبلا شك أن إعادة قراءة التراث النقدي والبلاغي، بالطريقة التي انتهجها تقع في صميم الهاجس التجديدي، فقراءة الباحث للنصوص الجاحظية –كما وقفنا عليه – جاءت في ظاهرها خالصة للبحث الأسلوبي الانشائي، وفي حقيقتها مشروع قراءة تفتح على إمكانيات متعددة في البحث، كما تطرح من الأسئلة أكثر مما تقدم من الإجابات.

8. الخاتمة والنتائج:

بعد عرضٍ مجمل لأطروحة حمادي صمود، نكون قد استخلصنا في نهاية البحث نتائجا مهمة، بالإضافة إلى ما أفرزته فرضية مركزية الجاحظ في البلاغة العربية، وها هي أبرز النتائج التي جاءت على النحو التالي:

- المؤلف يرى أن الجاحظ يمثل الحلقة الأولى لحركة ما سمي بالنزعة الموسوعية في الفكر العربي.
- لقد عرض لمصطلح البيان عند أبي عثمان بحسن تبصر وبقوة بحثية كبيرة.
- استطاع أن يتمثل الفكر البلاغي في ظروفه التاريخية والثقافية، بقوة تحليل بارعة.

– تمكن المؤلف من الإمساك بخيوط قضاياه، وأحسن تتبع مساراتها وأهمها قضية النظم، دراسة واستقصاء وفرض فكرة النظم كأساس منهجي، تقوم على أسس لغوية متطورة أساسها اللغة والكلام.

– إفادة المؤلف من الدراسات اللغوية المعاصرة كالأسلوبية واللسانيات، فقد استغلها أحسن استغلال، فكان في بحثه يحاول المزج بين التحليل والتأريخ للإرث البلاغي مع تطبيقات عملية لهذه النظريات الغربية.

– استطاع أن يجعل من الجاحظ مركزا للبلاغة العربية في شق –الحدث الجاحظي–.

هوامش:

[1]– كحلي رابح، rabahkahli38@gmail.com

[2]– شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط:14، دار المعارف، القاهرة، 2013، ص: 58.

[3]– محمد مشبال، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، المغرب، المغرب، 2010، ص: 102.

[4]– المرجع نفسه، ص: 102، نقلا عن حسن السندوبي، أدب الجاحظ.

[5]– عادل خضر، الجاحظ والبيان الاخر بحوث سيميائية تأويلية، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ص:01، 2017، ص: 119.

[6]– عبد الواحد مرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، ص: 4.

[7]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 13.

[8]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2008، ص 272

*– حافظ الجمالي ولد في حمص عام 1917، تلقى تعليمه في حمص ودمشق وباريس، عمل مدرساً ومفتشاً للتربية، وسفيراً في الخرطوم وروما، وسمي وزيراً للتربية، ورئيساً لاتحاد الكتاب العرب.

[9]– ينظر: حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب اسسه وتطوره الى القرن السادس، مجلة الموقف الأدبي – مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد 135 – 136، تموز وآب 1982، نقلا عن: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الاردن، ط1، 2019، ص:240.

[10]– ينظر:محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 18.

*– أديب أكاديمي عريق، عميد لكلية الآداب وأستاذ البلاغة والنقد بجامعة بنها بجمهورية مصر العربية، ويمتاز الدكتور رجاء عيد بالبحث الأكاديمي في علوم العرب الأدبية واللغوية والبيانية، يحلل ذلك بثاقب فكره، وعميق أدبه وحسن بيانه وعلى سبيل ذلك كتابه (البحث الأسلوبي معاصرة وتراث).

[11]– فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الانجلو مصرية، 2005 القاهرة، 2005، ص169.

[12]. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 185.

[13]– ينظر: عبد الله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة (صياغة جديدة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1995.

[14]– كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، ط:01، 1979، ط:02: 1984، ص: 11.

[15]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 480.

[16]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 12.

[17]– رجاء عيد، مقال: مجلة فصول، ص 234.

[18]– المرجع نفسه، ص 182.

[19]– ينظر: المرجع نفسه، ض 183.

[20]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 183.

[21]– المرجع السابق، ص 184.

[22]– المرجع نفسه، ص 184.

[23]– عايدة حوشي، نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ، حسب نظرية بورس، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، ط:01، 2017، ص: 160.

[24]– المرجع نفسه، ص 185.

[25]– مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط: 01، 1984، ص 534.

[26]– المرجع نفسه، ص 186.

[27]– ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 193 الى 195.

[28]– أدونيس، الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، تأصيل الأصول، دار الساقي، لبنان، ط:11، 2019، ج: 02، ص: 169.

[29]– ينظر: المرجع نفسه، ص 202.

[30]– المرجع نفسه، ص 252.

[31] - ينظر المرجع نفسه، ص 251.

[32] - عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة احمد بن بلة وهران، 2015-2016، ص 20.

[33] - ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 185.

[34] - دردار بشير، مقال: إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مجلة الآداب واللغات، مجلة دولية علمية أكاديمية، المجلد السابع، العدد الثاني، ربيع الثاني 1440هـ، ديسمبر 2018م، ص 231.

[35] - حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص 46.

[36] - محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في التأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القزويني، أفريقيا الشرق، 2017، ص 115.

[37] - عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع، تونس، ب ط، ص 31.

[38] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 31.

[39] - المرجع السابق، ج1، ص 90.

[40] - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص12.

[41] - رجاء عيد، مقال: التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس مشروع قراءة، عرض ومناقشة، ص235.

[42] - رجاء عيد، مقال: عرض ومناقشة التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 234.

[44] - المرجع نفسه، ص 275.

[45] - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، 148.